العنوان:	أنتلجنسيا أم مثقفون في الجزائر ؟
المصدر:	الإجتهاد
الناشر:	دار الإجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر
المؤلف الرئيسي:	زيادة، خالد
المجلد/العدد:	مج 2, ع 5
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1989
الشهر:	خريف
الصفحات:	255 - 261
رقم MD:	460255
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	المثقفون ، الدولة ، بلحسن ، عمار ، كتاب أنتلجنسيا أم مثقفون في الجزائر ، نقد الكتب
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/460255

انتلجنسيا أم مثقفون في الجزائر؟(*)

تقرير خالد زيادة

يقدم هذا الكتاب مادة نقاش غنية، بسبب تعدد الأصوات التي ساهمت في المناقشات، والتي دارت حول وجود انتلجانسيا جزائرية، أي طبقة مثقفة واعية بذاتها وبدورها، أم أن الأمر يتعلق فقط بمثقفين مشتتين. كذلك، فإن هذا الكتاب يسهم بتعريفنا بالهموم التي يعيشها جيل المتعلمين الذين هم نتاج الثورة والاستقلال، أي الذين درسوا وساهموا في قيام المؤسسات بعد عام ١٩٦٢.

وينطلق الكتاب من عرض المفاهيم التي عرضها الفيلسوف الايطالي انطونيو غرامشي، وخصوصاً النقاط المتعلقة بـ: مشكلة المثقفين والمثقف العضوي والمثقف التقليدي. ولعل المقال الافتتاحي هذا، الذي يتناول أفكار غرامشي، قد حدد سلفاً إطار وأفق المحاورات والمناقشات التي تضمنها الكتاب، والتي سنعمد إلى عرض أبرز ما تحتويه.

- يرى **عبد القادر جغلول**: انه لا وجود في الوقت الحاضر، لفئة اجتماعية منظمة، يمكن أن نطلق عليها اسم الانتلجانسيا، وإنما هناك مجموعة من الأفراد بدون نسيج ثقافي يربط فيما بينهم. وإذا كانت هناك «خطابات» فهي ليست من إنتاجهم، وهي غير فكرية وغير ثقافية غالباً. فهي تعيد إنتاج خطاب ذي طابع

(*) د. عمار بلحسن: انتلجنسيا أم مثقفون في الجزائر، دار الحداثة ـ بيروت ١٩٨٦.

سياسي على المستوى الفكري والثقافي (ص ٥٤ ـ ٥٦).

ولعل النقطة الأخيرة هذه هي أبرز وأهم ما يثيره جغلول، وسنعود إليها لاحقاً. إلّا أنه يواصل عرضه لملامح الأزمة التي يثيرها، مستعرضاً الإطار التاريخي: خلال عشرين سنة كوّنت الجزائر عدداً من المثقفين يتجاوز على ما أظن ما أنتجته في خلال ثلاثة أو أربعة قرون. لدينا إذن ظهور مفاجىء لمثقفين، هؤلاء ستخطفهم أجهزة الدولة أساساً، الأمر الذي يعني أن الشروط التي تولد فيها الأنتلجانسيا الجزائرية الحالية تكبح تجمعها وتكثفها كأنتلجانسيا، نظراً لأن المثقفين الذين تكونوا يشتغلون مباشرة في أجهزة، ليست هي الأجهزة التي تسمح بتثبت واستمرارية هذه الأنتلجانسيا.

وإذا كانت هذه هي النقطة الأولى التي تميز المثقفين في الجزائر، فإن النقطة الثانية هي: أن هذه النخبة الجديدة التي كبرت بطريقة سريعة لا تملك ولا تستند إلّا إلى تراث فكري وثقافي ضعيف (ص ٥٦).

وحول التفرقة بين المثقف التقليدي والمثقف العضوي التي يقيمها غرامشي، يرى جغلول: أنها غير قابلة للتطبيق على واقع البيئة والوسط الثقافي الجزائري الحالي، فالمثقفون التقليديون يتناقص عددهم من يوم لآخر، أما العضويون فإنهم لا يوجدون مطلقاً... التقليديون تكفّل بتدميرهم الاستعمار عن طريق التهديم أو السحق وإذا كانت خطاباتهم موجودة فإنها محوّلة ومغيّرة. ويقترح جغلول بالمقابل مصطلحين آخرين: المثقف المقلد والمثقف الموظف (ص ٦١).

وحول علاقة المثقف الموظف بالدولة يقول: إن المثقف ليس الدولة، وما دمنا نفكر بأن المثقف هو الدولة، فلن تكون هناك إمكانية لتشكل انتلجانسيا حقيقية. إن وظيفة الدولة هي تسيير المجتمع، أي تشغيل مختلف عناصر التسيير والسيطرة على المجتمع، بينما وظيفة المثقف الإنصات لهذا المجتمع من أجل صياغة التحولات التي تجري داخله فكرياً. انطلاقاً من هذا الفهم فقط يستطيع المثقف القيام بدوره ومهمته، أي فهم ما يجري وعرضه، وصياغة آفاقه وآفاق المجتمع (ص ٦٤).

كيف يمكن أن يتم ذلك، أي كيف الانتقال من نتف المثقفين الموظفين إلى انتلجانسيا حقيقية، قادرة على إنتاج معارف وحقائق حول مجتمعها، وباستطاعتها وضع قيم ومعايير جديدة، أي كيف نصل إلى تكوين انتلجانسيا طليعية؟ هذا التساؤل يصيغه جغلول ويجيب عنه على النحو التالي: إن أحد عناصر تكونها هو مشكل احتكار الدولة لمجال الثقافة. . (ص ٦٩).

- في المناقشات التي أعقبت عرض جغلول لآرائه، نلاحظ غرقاً في الجدال الايديولوجي والمفاهيم بدل العودة إلى واقع تاريخي واجتماعي. يدافع افريان فرقان عن تقسيم غرامشي: إذا رفضنا أن نتوقف عند مستوى تلك القراءة الأولية لغرامشي، وذهبنا بعيداً وعميقاً، فإننا نلاحظ أن التفريق الذي يقترحه جغلول بين المثقف المقلد والمثقف الموظف، موجود ضمن تفرقة غرامشي (ص ٨٢). ويرجع **عليوش كمال** إلى مستوى أخلاقي لمفهوم المثقف: إن المثقف يعيش داخل مجتمع في طور النمو، لذا فدوره هو المساهمة في التنمية، وبهذا تتحدد مكانته تلقائياً. فوظيفته ومسؤوليته تتجلى في كونه يفهم دواليب المجتمع، ويبحث في سبيل معرفتها، حتى يجد علاجاً للانحرافات ويستطيع تحسين وتطوير ما يمكن تطويره (ص ٩١). ويعارض الزاوي حمزة رأي جغلول حول انعدام تراث ثقافي، كما أنه يطرح مسألة لم يتطرق إليها سواه في جملة المناقشات وتتعلق بصلة المثقفين الجزائريين بسائر المثقفين العرب: عندما نتحدث عن الشمولية في تناول أزمة الثقافة والمثقفين في الجزائر، لا ننفي عن هذه الإشكالية صفة الخصوصية، بل نريد أن نحملها بعداً تاريخياً وتصوراً مستقبلياً واضحاً وواقعياً، الأمر الذي يقودنا كذلك إلى التساؤل عن وجود «انتلجانسيا عربية»، أو بالأحرى انتلجانسيا في كل قطر من الأقطار العربية، في مصر أو سورية أو تونس، ومن يمثل هذه الانتلجانسيا؟ ولصالح من تعمل هذه الفئة؟ (ص ٩٨).

أما بودراع بلقاسم فيطرح أيضاً نقاطاً أخرى للنقاش: هناك مواضيع كالسلطة، والتاريخ والدين تبدو محرمة على المثقفين النقديين، هناك ما يشبه الحواجز البسيكولوجية والبنيوية التي تكبح وتمنع المثقف الجزائري من الكلام والتفكير في هذه المواضيع. . ويضيف: إن ظهور انتلجانسيا نقدية، مرهون

ومتعلق أساساً بوضع حد نهائي لبعض أنماط العلاقات التي ربطتها السلطة مع المثقفين، وظهور ديموقراطية حقيقية ومسؤولة (ص ١٠٦ - ١٠٧).

ونعرض أخيراً لرأي سعيد دحماني في مشكلة التعبير اللغوي: بعد عشرين عاماً من الاستقلال، برز عالم «المتعلمين» الجزائريين على شكل ازدواجية مضاعفة؛ كتابة معربة ومفرنسة، يمكن أن نسميها ازدواجية أفقية، وازدواجية لسانية (لغة تعليم وتعلم - لغة أم) يمكن أن نطلق عليها اسم ازدواجية عمودية. وقد نتج عن هذه الظاهرة تشتت وانفجار لعالم المتعلمين الجزائريين وتشظيه إلى فرديات منعزلة ومعزولة... تبعاً لهذا، فإن أحد شروط ظهور انتلجانسيا جزائرية، هي تملك هذا الماضي التاريخي الطويل باكتساب وعي جماعي به، يستطيع تعيين وتحديد تلك الوحدة الثابتة، التي هي الأنا الوطنية (ص ١٢٧ - ١٢٨).

- يحاول عمار بلحسن في نهاية الكتاب أن يستخلص حصيلة المناقشات فيلاحظ التنافر في معالجة المسألة المطروحة، وإغفال الواقع الفكري الثقافي الجزائري. ويعترف بضرورة الدراسات المحددة والملموسة حول الفقهاء والأدباء والعلماء، والإطارات الاقتصادية والنخب السياسية، والايديولوجيين. ويقترح محاور للنقاش هي حصيلة للمناقشات: هل هناك انتلجانسيا في الجزائر، تتظاهر وتعمل كمجموعة اجتماعية منسجمة وعضوية، تقوم بالإنتاج المعرفي والايديولوجي... هل هناك إمكانية لبناء نمطية للمثقفين الجزائريين على أساس معايير محددة كالتفريق بين الشغِّيل الذهني والمثقف النقدي؟ ما هي العلاقات المتنوعة، المعقدة، التي تربط المثقف الجزائري الحالي بمجموع أبعاد مجتمعه التاريخية - التراثية، الحاضرة والمستقبلية (ص ١٦٣ - ١٦٤).

ويلاحظ بلحسن الإجماع على القول بغياب انتلجانسيا جزائرية، كمجموعة مثقفة اجتماعية منتظمة، مستقلة ذاتياً، أصيلة، متجذرة في التاريخ الجزائري. وفي الجواب على هذا الغياب يسوق مجموعتين من الأسباب:

- تاريخية: عدم وجود تقاليد وتراث ثقافي وحضاري جزائري غني بمضامينه

ومؤسساته الثقافية، نقص الوعي بالاستمرارية الثقافية ومؤشراتها ومعالمها، التدمير الاستعماري للبنيات والمؤسسات الثقافية، تحطم وتفكك المجتمع المدني وسيطرة الدولة والمجتمع السياسي على الحياة الاجتماعية..

- سسيولوجية: كعدم تبلور القوى الاجتماعية الجزائرية في طبقات واضحة المصالح والاتجاهات، وعدم ارتباط المثقف وعضويته لهذه الطبقات.. (ص ١٦٩).

لقد حاولنا فيما تقدم أن نعرض الآراء المنوعة والمتفرقة التي أبداها المثقفون الجزائريون من خلال مناقشة مسألة حضور أم غياب انتلجانسيا جزائرية. وقد كان هذا النقاش حسبما تبدّى في صفحات الكتاب يوضح بعضه بعضاً، لكننا سنعمد هنا في هذه المراجعة إلى بعض الخلاصات:

- تجدر الإشارة أولاً إلى أهمية هذه المناقشات التي اتسم بعضها بالتلقائية وبعضها الآخر بالتخطيط، وعلى العموم فإنها تضعنا في الأجواء «المتعلمة» والجامعية الجزائرية، وخصوصاً في نظر هذه الأوساط إلى ذاتها وإلى أزمتها. ويبدو واضحاً من خلال بضعة إشارات إلى أن تفجر هذا النوع من النقاشات قد جاء إثر أحداث متفرقة داخلية عامي ١٩٨٠ - ١٩٨١، مما وضع المثقفين ليس أمام مشاكلهم فقط ولكن أمام المشاكل التي تعيشها الدولة. نضيف إلى ذلك أن هذه الأحداث قد أعادت إلى أذهان المتناقشين والمتدخلين (أصحاب المداخلات)، مسألة تكون المثقفين في مرحلة الاستقلال، وبعد مرحلة طويلة من الاستعمار، الأمر الذي يضعنا أمام خصوصية الوضع الثقافي الجزائري، إلّا أن هذه الخصوصية لا تنفي، حسب رأي أحد أصحاب المداخلات التي أشرنا إليها سابقاً، ضرورة رؤية الارتباط بين أزمة المثقفين الجزائريين وسائر المثقفين في الأقطار العربية الأخرى.

- لعل المسألة الأكثر حسماً في هذا النقاش كانت في ارتباط المثقف بالدولة، وقد رأى جغلول وآخرون جزءًا من المشكلة دون التشديد على وجهها الآخر، فإذا كانت السمة العامة للمثقف الجزائري، هي المثقف الموظف، فإن الأمر

يتطلب دراسة موسعة لدور الدولة في تكون هذا المثقف، أي أن تخطيط الدولة وبناءها للمؤسسات التعليمية والثقافية والإعلامية هو الذي أوجد هذا الكمّ الهائل من المتعلمين أو «المثقفين» الذين يجدون أنفسهم اليوم في أزمة، ولولا مجهود الدولة، بدون تقويمه أخلاقياً، فلا وجود فعلي لهذا العدد الهائل من المثقفين. وهذه المسألة بحد ذاتها، ليست خصوصية جزائرية، إلّا بمقدار التكون الحديث للجزائر المستقلة، وما شهدته الجزائر خلال الربع قرن الأخير، عرفته الأقطار العربية الأخرى على امتداد قرن من الزمن، بحيث أن آثار ذلك أصبحت اليوم غير معروفة لدى الباحثين، ومع ذلك فإن عدم تناولها ومعرفتها لا يعني انتفاءها في المناطق الأخرى من العالم العربي.

- كذلك، فإن الازدواجية اللغوية الواضحة والمباشرة في الجزائر، قائمة في سائر البلدان العربية على نحو كامن ومستتر بحيث يصعب تبيانها، وهي ازدواجية لغوية ومفهومية في آن معاً. ونقصد من خلال هذه الملاحظة إلى القول بأن المشاكل التي تحيط بأوضاع المثقفين في الجزائر والمغرب عموماً لا تختلف اختلافاً جذرياً عن المشاكل في المشرق. لكن التناقضات بين: المثقف التقليدي والمثقف المرتهن للدولة، وبين التعبير اللغوي العربي واللغوي الفرنسي. . . لتبدو أشد وضوحاً في الجزائر والمغرب منها في المشرق، ولهذا فإن النقاش حول المثقف في علاقته بالدولة لا يزال في بدايته في المشرق بسبب غموض العلاقة بين الدولة والمثقف في الأساس.

- وبخصوص الكتاب والمناقشات التي تضمنها، فإن طرح أفكار غرامشي قد لعب دوراً معيقاً في توجيه المناقشات ضمن أفق واحد، وضمن معيار ذي صبغة ايديولوجية. وقد دارت المناقشات انطلاقاً من بداهة: وجود أو عدم وجود طبقة مثقفة علماً أن هذه البداهة، ليست بديهية إلى الحد الذي تصوره عمار بلحسن، أو عبد القادر جغلول. وإذا كانت آراء غرامشي على أهميتها هي حصيلة تأمُّل في تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، فإن تأملاً مماثلاً ينبغي أن يخوض فيه المثقفون العرب لمعرفة الوضع الذي كان عليه المتعلمون (العلماء) والوضع الذي آلوا إليه.

- يلزم في الختـــام، وكـما ورد داخـــل الكتـاب نفســـه، إجـراء البحـــوث والدراسات ذات الطابع التاريخي والاجتماعي، حـول الفقهاء والأدبـاء والعلماء وسـائر أولئـك الذين لعبـوا، ضمن أوضـاعهم، دور المثقفـين دون أن نخضـع أنفسنا لأولية القسمة بين التقليدي والعضوي والحديث.